

التجارة الأوروبية في الرقيق الإفريقي عبر المحيط الأطلسي من القرن 15م إلى القرن 19م - السنغال نموذجاً -

*The European Trade in African Slaves Across the Atlantic Ocean
from the 15th to the 19th Century - Senegal as a model -*

د. نبيل جابري

جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي، تبسة، الجزائر

nabil.djabri@univ-tebessa.dz

تاريخ النشر: 2026/03/31

تاريخ القبول: 2026/03/30

تاريخ الإرسال: 2025/04/22

الملخص:

تندرج هذه الدراسة ضمن الحديث عن معاناة الشعوب الأفريقية جرّاء الظلم والاستعباد الذي مارسه الرجل الأوربي ضد الرجل الأفريقي طيلة أربعة قرون، إذ انبرى الأوروبيون في سباق محموم نحو القارة السمراء للظفر بمقدراتها المادية والبشرية واستغلالها أبشع استغلال لم يشهد له مثيل في التاريخ، وفي هذا الموضوع سنوضح دور الكشوفات الجغرافية في التمكين للأوروبيين من السيطرة على الأفارقة واستغلالهم واسترقاقهم لمدة قرون، حيث تأسست شركات أوروبية كثيرة همها الوحيد يتمثل في قنص العبيد وتجميعهم ونقلهم إلى أوروبا والعالم الجديد حتى يكونوا وقوداً للحياة الاقتصادية ومحركاً لمختلف الأعمال الأخرى، وذلك دون أن تبدر منهم بادرة إنسانية نحو آثار هذه التجارة التي اقتلعت الإفريقي من جذوره، ونقلته إلى عالم زاهر بالتسلط والجور والإجحاف.

الكلمات المفتاحية:

إفريقيا، أوروبا، العالم الجديد، الكشوفات الجغرافية، تجارة الرقيق

Abstract:

This study falls within the discussion of the suffering of African peoples as a result of the injustice and enslavement practiced by Europeans against Africans. Over four centuries, The Europeans competed in a frantic race towards the Black Continent To seize their material and human capabilities and exploit them in the most egregious exploitation unparalleled in history. In this topic, we will explain the role of geographical discoveries in enabling Europeans to control Africans, exploit them, and enslave them for centuries. Where many European companies were founded, their only concern was to snipe slaves, collect them and transport them to Europe and the New World So that they fuel economic life and drive various other businesses, And that without any human gesture from them to erase the traces of this trade that uprooted the African from its roots, and transferred it to a world full of authoritarianism, injustice and prejudice.

keywords:

Africa; Europe; geographical discoveries; slave trade; the new world.

1. مقدمة:

يعتبر الحديث عن الأفارقة وتجارة الرقيق من المواضيع التي تسترعي انتباه الباحثين في التاريخ، ذلك أن تكالب الأوربيين على إفريقيا يبين بجلاء نظرة الاستعلاء والظلم الذي ميّز معاملة الإنسان الأوربي للإنسان الإفريقي واعتباره سلعة تباع وتشترى، فتنامت تجارة العبيد بشكل رهيب إثر الاكتشافات الجغرافية من أجل البحث عن مصادر التمويل المختلفة، ولم يتوان الأوربيون وبمباركة من الكنيسة عن المتاجرة في الرقيق الإفريقي من أجل الحصول على الأرباح، وبالتالي سعوا إلى إنشاء محطات لنقل العبيد الأفارقة انطلاقاً من المحيط الأطلسي إلى أوروبا والعالم الجديد بوجه خاص، ومن هذا المنطلق يمكن طرح الإشكال الرئيسي: كيف ساهمت القوى الأوربية في بناء منظومة تجارة الرقيق في غرب إفريقيا خلال القرنين 16 و17م؟ وما الآثار التي خلفتها هذه التجارة في المجتمعات الإفريقية والأمريكية آنذاك؟

ويمكن إدراج أسئلة فرعية: ما هي أهداف الكشوفات الجغرافية؟ وكيف بدأت تجارة الرقيق الإفريقي؟ وما هي أساليب الأوربيين في الاسترقاق وجلب العبيد الأفارقة؟ كيف كانت تتم تجارة الرقيق الإفريقي عبر الأطلسي؟ وما هي أبرز محطاتها؟

للإجابة على الإشكالية الرئيسية والتساؤلات الفرعية تم الاعتماد على المنهج الوصفي والتحليلي، ومن خلال ذلك سيتم عرض ما يلي:

2. الاكتشافات الجغرافية وبداية استعمار إفريقيا:

شهد القرن الخامس عشر بداية حركة أوربية تهدف للتعرف على المجهول من الأرض لضرورات اقتصادية وسياسية ملحة،⁽¹⁾ وظل الجانب الأكبر من إفريقيا آمناً بل ومجهولاً لا تصل إليه أيدي الأوربيين، حتى بدأ الوجود العربي الإسلامي في الأندلس بالانحياز، وتساقطت الممالك العربية الإسلامية في الأندلس واحدة تلو الأخرى، وظهرت البرتغال كقوة سياسية وبحرية،⁽²⁾ وكان أول منجزاتها غزو مدينة سبتة على الشاطئ المغربي سنة 1415، مما اعتبر الخطوة الأولى في طريق اكتشاف جغرافية العالم والتعرف إلى أقسامه وأبعاده،⁽³⁾ وأثر هذا الحدث على إعادة التفكير بأن العرب ليسوا بعيدين من إمكانية هزمهم، بعد أن عاشوا مئات السنين في خوف من الإفريقيين العرب الذين كانوا يسدون الطريق عليهم أمام تحركات الأوربيين في البحر.⁽⁴⁾

في سنة 1418 بدأت أولى المحاولات البرتغالية لتحقيق هذه الأهداف، ونجح البرتغاليون في هذا العام بإعادة اكتشاف ماديرو، ثم اكتشاف جزر الأزور سنة 1444، وتوالت البعثات الكشفية، ووجد البرتغاليون أن إفريقيا أكبر مما كانوا يعتقدون وأن خريطة بطليموس ليست صحيحة،⁽⁵⁾ هذا بالإضافة إلى بعض المراكز على شاطئ إفريقيا مثل الرأس الأبيض والرأس الأخضر.⁽⁶⁾

رغم سيطرة البرتغاليين على سببته إلا أنهم فشلوا في أن يسيطروا على تجارة الذهب الإفريقية وبأخذوها من المغاربة، ودفعهم هذا الفشل إلى تبني استراتيجية بحرية بهدف الوصول إلى طريق الذهب الحقيقي، وبدأت خططهم بالالتفاف حول سواحل إفريقيا من الساحل الشمالي الغربي إلى الجنوب على طول الساحل الغربي،⁽⁷⁾ فقد فكر هنري الملاح في فتح طريق مائي حول إفريقيا من المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر ثم إلى الهند للسيطرة على تجارة الشرق، ومحاصرة الإسلام والمسلمين في شمال إفريقيا بدول مسيحية.⁽⁸⁾

خلال القرن الخامس عشر بدأ البرتغاليون باستكشاف ساحل أفريقيا بشكل أكثر انتظاماً، مما مهد الطريق للعديد من الاكتشافات الجديدة التي ستمهد الطريق للاتصال والتجارة، بما في ذلك تجارة العبيد، التي بدأت بشكل مبكر في هذا السياق التاريخي.⁽⁹⁾

من أجل ذلك تتابعت منجزات الكشوفات الجغرافية طيلة القرنين 15 و16م، ونجح فاسكو دي غاما في الدوران حول إفريقيا ووصل بحرا إلى الهند، فأقام أول اتصال بحري مباشر بين شطآن أوروبا الغربية وبلاد الشرق الأقصى، وهذا ما أدى إلى تراجع نفوذ المسلمين والإيطاليين على خط التجارة بين أوروبا والشرق، وإلى إقامة إمبراطورية برتغالية عظيمة في المحيط الهندي، ثم إن رحلات كولومبوس ومن تبعه بعد ذلك من الرواد الإسبان كشفت للإنسان العالم الجديد، وأن المحيط الأطلسي يخفي وراءه قارة عظيمة أطلقوا عليها اسم أميركا.⁽¹⁰⁾

خلال السنوات القليلة التالية لاكتشاف الطريق البحري للهند عبر رأس الرجاء الصالح بسط البرتغاليون سيطرتهم على المراكز المهمة الواقعة على الساحل الشرقي لإفريقيا بهدف تأمين طريقهم للهند، وبحلول العام 1507م سقطت كل المراكز الساحلية المهمة في أيدي البرتغاليين مثل كيلوه، مباسا، سوفالا وموزمبيق، ولكن البرتغاليين لم يتمكنوا من التوغل في داخل القارة الإفريقية إلا عن طريق نهر الزمبيزي، ففي بادئ الأمر استطاعوا إقامة مراكز للبريد في تيتي على نهر زمبيزي وكويليما على الساحل.⁽¹¹⁾

حتى في القرن 15م فإن البرتغاليين كانوا يتلمسون طريقهم جنوبا حول الشاطئ الإفريقي الغربي، وكانت معرفتهم غامضة حول القوى والمجتمعات الداخلية في إفريقيا التي كانوا ينشدون التحالف معها، لذلك بدأ ملك البرتغال بجذر يرسل وكلاء برسائل للرؤساء المهمين وأن يظهر نفسه لهم باعتباره صديقا قويا ووثيقا لشؤونهم وحروبهم، وفي الربع الأخير من القرن الخامس عشر أرسل رسولين إلى أمير التكرور (عند ساحل السنغال) وإلى أمير قبكتو، كما أرسل بعثة في اتجاه الجنوب إلى جامبيا وإلى منسا موندي، ويعتبر من أقوى الرؤساء في إقليم الماندنغو وكان أيضا أميراً على إمبراطورية مالي المترامية الأطراف يعرض صداقتهم.⁽¹²⁾

في أعقاب الاستكشافات الجغرافية بدأ استعمار أجزاء عديدة من إفريقيا، إذ أنشأت البرتغال عددا من المراكز التجارية على بعض جهات السواحل الغربية والشرقية وأقامت حاميات عسكرية،⁽¹³⁾ وكانت البعثات التبشيرية المسيحية التي توغلت في إفريقيا تخفي أغراضا سياسية واقتصادية مهدت لاستعمار المناطق التي نزلت بها، وذلك عن طريق تشييد المدارس والمستشفيات ودور الرعاية، كما حدث في أوغندا وجنوب السودان والكاميرون ونيجيريا.⁽¹⁴⁾

بذلك بدأ الاستعمار الغربي في العصور الحديثة، حيث أسس البرتغال أول امبراطورية استعمارية، إلا أنها لم تدم طويلا بسبب المنافسة الإسبانية في نهاية القرن السادس عشر، حيث انتقل اهتمام البرتغال من الشرق إلى البرازيل التي جلب لها البرتغاليون الرقيق الإفريقي بأعداد ضخمة مما جعلهم مؤسسي تجارة الرق في العصر الحديث.⁽¹⁵⁾

3. الدوافع الأوروبية لاستعمار إفريقيا

أصبحت الدول الأوروبية ولاسيما بعد الثورة الصناعية لا تكاد تقوى على العيش دون مستعمرات، كما أن حالة الاستعمار لم تأت من فراغ، فهناك المرجعيات المتنوعة الدينية التبشيرية، والكشوفات الجغرافية والاقتصاد، كما كان للعلماء والمستشرقين والصحافة أثر فاعل وكبير في تنامي نزعة الاستعمار، فضلا عن استغلال المعاهدات والمشكلات السياسية مع دول أخرى.⁽¹⁶⁾

ومن أجل قراءة دقيقة لكل ما سبق، لا بد من معرفة أهم الدوافع التي كانت وراء حركة الكشوفات الجغرافية وتوجه الدول الأوروبية نحو إفريقيا كالاتي:

◀ يظهر أثر العامل الاقتصادي بوضوح إذا ما عرفنا أن مراكش اقترنت دائما في أذهان البرتغاليين بتشييد اقتصاد الإمبراطورية البرتغالية، إذ كان هدف القائمين بأعمال الكشف والاستعمار في ساحل إفريقيا الغربي تزويد البرتغاليين بالقمح من مراكش والخيول ليشتروا بها الذهب من الرؤساء الأفارقة الذين يتعاملون مع المحطات البرتغالية.

◀ كانت الصناعة الأوروبية الناهضة حديثا في حاجة إلى مواد خام زراعية ومعدنية، كما كانت بحاجة إلى أسواق لتصريف المنتجات، ووجد الأوروبيون في القارة المستكشفة حديثا حلا لكثير من مشكلاتهم.⁽¹⁷⁾

◀ التحسينات التي أدخلها البرتغاليون على بناء السفن، والتي كان من نتائجها التمكن من صنع قوارب خفيفة وزن 200 طن وقادرة على السير في الرياح وفي الظروف المناخية الصعبة.

◀ استخدام البوصلة في الملاحة البحرية وإدخال تعديلات على البوصلة القديمة بإضافة مؤشر يبين اتجاه الرياح الأمر الذي ساعد على تقدم الملاحة البحرية، بالإضافة إلى أنه أمكن التغلب على الصعوبات التي كانت

تعترض الرحالة في التقدم إلى الجنوب من رأس بوجادور، والتي أهمها الرياح التجارية في هذه المنطقة التي تهب من الشمال الغربي فتجد طريق العودة صعبا.

- أدت العوامل الدينية دورا كبيرا في حركة الكشوف الجغرافية، كما ساهم في ذلك دور الكنيسة التي شجعت حركة الكشوف، حيث تملكهم رغبة قوية في مطاردة المسلمين في غرب إفريقيا وتحويلهم إلى المسيحية.
- حاول البرتغاليون الوصول إلى رأس الرجاء الصالح أقصى جنوب إفريقيا، في محاولة للوصول إلى تجارة الشرق التي كانت عصب الحياة الاقتصادية في تلك الفترة، وكانت دولة الممالك تبسط نفوذها آنذاك على الشام ومصر والحجاز، وكسب أسواق جديدة لمنتجاتها الصناعية الحاجة المتزايدة للمواد لدعمومة الإنتاج الصناعي، وبالمقابل البحث عن الأسواق لتصريف تلك المنتجات وفتح المجال للمستثمرين الفرنسيين والبريطانيين.
- الرغبة في السيطرة على مصادر الإنتاج الزراعي والمعدني الهائل والمتوافر في القارة الإفريقية وبالتحديد استخراج الذهب، الشريان الرئيسي لدعمومة الاستثمار الرأسمالي الواسع النطاق.
- استعمال المستعمرات كوسيلة فعالة لحل أزمة تزايد السكان، وكان ذلك أحد أبرز النتائج الإيجابية للثورة الصناعية داخل البلدان المصنعة، وبالمقابل كانت كارثة إنسانية على صعيد الدول الخاضعة للاستعمار، والتي استقبلت إفواجا من البشر لغرض النهب والاستثمار والسياحة والمغامرة.
- الرغبة الجارحة باستثمار رؤوس الأموال الفائضة في فرنسا وبريطانيا، نتيجة تطور الثورة الصناعية بإقامة معامل تسخير الأفارقة للعمل لتنتهي دورة هذا الاستثمار والربح الخيالي إلى مصارف حكومتي الدولتين.
- ازدهار تجارة العبيد والمتاجرة بالإنسان الإفريقي الأسود ونقله إلى المستعمرات الأوربية في أوروبا والعالم الجديد.⁽¹⁸⁾

4. قنص الأفارقة وبداية تجارة الرقيق

اعتبر البرتغاليون منذ البداية اقتناص الأفارقة من الشواطئ الإفريقية وبيعهم في أوروبا وغيرها عملا مقدسا، إذ تم بعد اختطافهم اقتيادهم إلى أوروبا وتعميدهم، ثم جرى بيعهم وتسخيرهم للعمل في ضياع الأمراء الإقطاعيين، ونظر الأوروبيون إلى هذا الأمر نظرة عادية طبيعية، فالمسيحية تقوم بإنقاذ أرواح هؤلاء الزنوج أما أجسادهم فتبقى في الرق، وهكذا تطلع البرتغاليون إلى الأفارقة نظرة السيد للعبد، وجرى القنص والاختطاف باسم المسيح والقديسين، ولم يفكر الأوروبيون في هذا الوقت بتنصير السود أو بتحريرهم، وإنما كان جل اهتمامهم اختطافهم وتسخيرهم في أشق الأعمال وفي إعمار واستغلال العالم الجديد.⁽¹⁹⁾

مع حوالي منتصف القرن 15م بدأت طلائع البرتغاليين في التجوال على السواحل الإفريقية، وبدأت عمليات نقل الأفارقة من هذه الشواطئ إلى أوروبا لبيعوا في أسواقها، ولم يكن دخولهم في المسيحية محرراً لهم من الرق، بل أدخل الأوروبيون في روعهم أن المسيحية تحرر الروح أما الجسد فيبقى في الرق تكفيراً عن الذنوب والخطايا التي ارتكبتها الرجل الأسود.⁽²⁰⁾

في عام 1440 أسر أحد ضباط أمير البرتغال هنري الملاح بعض المغاربة، فأمر الأمير بإعادتهم فتلقي من المغاربة مقابل ذلك عشرة من الزنوج وكمية من الذهب، ففتح هذا العطاء شهية مواطنيه فجهزوا عددا من السفن لتلك التجارة، وسار بعض المغامرين نحو الجنوب في اتجاه رأس بوجادور سنة 1434م، وفي معارك صغيرة على الشاطئ الغربي اقتنص نحو 165 من الرجال والنساء والأطفال فضلا عن قتل في هذه المعارك، ثم أسروا 17 أو 18 من النساء والأطفال الذين لم يكونوا قادرين على الجري، ووصلت هذه الحملة إلى جنوب البرتغال ومعهم المأسورون، ويمكن القول أن إرهابات تجارة الرقيق الإفريقي من قبل البرتغاليين بدأت في ذلك الوقت.

ظهرت هذه التجارة لأول مرة بحسدة في وصول أول شحنة من العبيد الأفارقة إلى البرتغال في أوت 1444م وكان عددهم 235 عبدا، ويذكر هيو توماس في مؤلفه القيم (تجارة الرقيق)، أن وصول هذا الحجم من الإفريقيين كان شينا مثيرا، ذهب الكثيرون لمشاهدته ومنهم الأمير هنري الملاح الذي أخذ يحرق إليهم من ظهر جواده، واستلم منهم هدية يبلغ مقدارها 46 عبدا وهو يمثل الخمس الملكي.⁽²¹⁾

مع تقدم البرتغاليين على الشواطئ الإفريقية أخذ هنري الملاح يفكر بتحقيق كسب سياسي لبلاده محالوا حمايتها من مزاحمة البلدان الأخرى في هذه المناطق، وجعل الاكتشاف في الشرق على شواطئ إفريقيا احتكارا للبرتغال بواسطة رقيق يحصل عليه من البابا، ولا بد من الإشارة إلى أن محاولته هذه قد أدت إلى قيام صراع عنيف بين إسبانيا والبرتغال للحصول على تأييد البابوية في أعمال الاستعمار.⁽²²⁾

أمر اصطيد العبيد في المراحل الأولى لم يكن يمثل صعوبة كبيرة بالنسبة للمستعمرين الأوروبيين، خاصة أن هذه العملية كانت تقع بالقرب من المراكز التجارية لهم، فإن التجارة في الرقيق أخذت مع زيادة الطلب على هذه السلعة الآدمية أبعادا ضخمة واستخدمت فيها إمكانيات كبيرة.⁽²³⁾

ساعد هذا التوسع في حركة الكشف، وكانت موضع تشجيع الأمير هنري الملاح إلى غاية وفاته عام 1460م،⁽²⁴⁾ إلا أن العمل الذي بدأه لم يتوقف بموته بل تولاه ابن شقيقه حنا الثاني ملك البرتغال، ففي العام 1482م تمكن البحارة البرتغاليون من اجتياز خط الاستواء ووصلوا حتى مصب نهر الكونغو، وبعد هذا التاريخ بخمس سنوات تمكن البحار دياز الذي سبق له أن اشترك في كثير من الحملات السابقة من الوصول إلى الطرف الجنوبي للقارة المعروف باسم رأس الرجاء الصالح.⁽²⁵⁾

في أواخر القرن 15م وأوائل القرن 16م انتشرت تجارة مخففة للرقيق في بعض أجزاء البحر الأبيض المتوسط، ومن ذلك أن الأتراك والمغاربة كانوا يأسرون الأوروبيين ويأخذونهم رقيقاً، أما إسبانيا والبرتغال فكانتا تأسيران العرب والأوروبيين والإفريقيين على حد سواء، ولكن ما إن تم اكتشاف أمريكا في أواخر القرن 15م حتى تبوأَت تجارة الرقيق أهميتها ومركزها الكبير كعملية تجارية مربحة جداً، إذ كان البرتغاليون هم أول من بدأ تجارة الرقيق في القرن 16م إلا أن هذه التجارة بلغت مداها في بريطانيا.

بدأت تجارة الرقيق في القرن 16م بعدد لا يتجاوز نصف المليون، ثم قفز في القرن الثامن عشر إلى 06 ملايين إفريقي، وكانت السفن البريطانية تنقل حوالي نصف المصدرين منهم إلى أمريكا ومنطقة الكاريبي، وكانت بريطانيا تحتل المكانة الرئيسية في سوق الرقيق، وذلك بسبب سيطرتها على الجزء الأكبر من غرب إفريقيا وخاصة المنطقة الواقعة بين ساحل الذهب ودلتا النيجر، وهي أكثر مناطق إفريقيا من حيث الكثافة السكانية.⁽²⁶⁾

مع بداية القرن 16م وعلى إثر اكتشاف الملاحين الأوروبيين للساحل الإفريقي وللعالم الجديد، بدأ الأوروبيون في استغلال زنج إفريقيا عبداً بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ، وصارت زيارات تجار الرقيق المغيرين على السواحل الإفريقية على مدار القرون الأربع التالية تمثل تجارة مربحة وذات أهمية بالغة، ليس للعمل في أوربا فحسب بل في العالم الجديد بشكل واسع خاصة بعد إبادة الكثير من السكان الأصليين (الهنود الحمر)، وعلى إثر هذه الإبادة وتناقص أعداد الهنود الحمر إما بالقتل أو الهروب إلى أدغال أمريكا ولجأ الأوروبيون إلى إفريقيا للتزود باليد العاملة الرخيصة والوفيرة، وكان العبيد الزنوج يجلبون في الغالب من الجماعات الفقيرة أو من أسرى القبائل في البداية، ثم أصبح القنص والخطف هو السمة الغالبة لجلب العبيد الزنوج.⁽²⁷⁾

كانت البرتغال وإسبانيا أول الدول الأوروبية التي أقرت هذا التجارة من خلال السماح للمستوطنين المقيمين في مستعمراتهم في أمريكا الجنوبية بامتلاك عبيد من أفريقيا السوداء كمتلكات منقولة، وكانت التراخيص الملكية يتم منحها في البداية لوجهاء البلدين للسماح لهم باستيراد العبيد الأفارقة في المستعمرات، لكن بعد مائة عام من رحلات كريستوفر كولومبوس، سقطت هذه التراخيص الملكية سريعاً في عدم الاستخدام لإفساح المجال أمام تجارة غير مقيدة، وبذلك كان الطلب على أعمال السخرة قوياً في المستعمرات.⁽²⁸⁾

كان عامل امتلاك الأسلحة لدى الأوروبيين يسمح لهم بالتفوق على المجتمعات الإفريقية بسهولة، ولم يكن في وسع السيوف والحراب والأسهم أن تقف في مدة طويلة في مواجهة الأسلحة النارية والبنادق، ثم أخذ الأوروبي يستعين ببعض الأهالي التابعين أو المواليين له، ويستخدمهم في مساعدته في هذه العملية.⁽²⁹⁾

لم يتمكن البرتغاليون من إقامة قاعدة ثابتة فأنشأوا قاعدة في جزر الرأس الأخضر، ومن هناك قاد التجار رحلات إلى ساحل غينيا العليا، لشراء الأسرى بعد أن ازدهرت تجارة الرقيق في المنطقة، وأسس البرتغاليون قاعدة في ساحل الذهب، والتي كانت بمثابة مركز لتجارة الذهب لعدة قرون، وسحب الذهب للتصدير من منطقة أكان النائية، كما قام البحارة البرتغاليون بشراء العبيد مع مملكة بنين بعدما أقاموا علاقات تجارية معهم⁽³⁰⁾.

ظلّ البرتغاليون يحتكرون تجارة العبيد حتى نهاية القرن 16م، ففي البداية كانوا هم من يقومون بعمليات صيد العبيد من الساحل، وكان الإفريقيون الذين يجيدون الإبحار في شواطئهم يهاجمون البرتغاليين ويفتكون بهم، ولمّا زاد عدد القتلى البرتغاليين، قرر هنري أن يغيّر من أساليب الصيد البرتغالي فبدلاً من أن يغامر البرتغاليون بهذا العمل فليشتروهم من الأفارقة، وبدلاً من اختطافهم ليقم الأهالي بهذه المهمة، وأظهر بعض الأهالي للبرتغاليين استعدادهم للتفاهم معهم واقتنعوا بأن العبودية أسهل بالتجارة منها بالحرب، وحتى ذلك الحين فإن رؤساء العشائر في جنوب الصحراء كانوا يعملون كوسطاء داخل البلاد لتجارة الرقيق من غرب إفريقيا إلى البحر الأبيض وأوروبا، ولكنهم بدؤوا الآن يبيعون الرقيق مباشرة إلى أوروبا، وانتصر البرتغاليون في واحد من أهم أهدافهم وكسروا احتكار التجارة الإفريقية التي كانت تحتكرها الدول الإسلامية في إفريقيا المطلّة على البحر المتوسط التي سيطرت عليها قروناً عديدة.⁽³¹⁾

في أول الأمر حاول الأوروبيون إقامة علاقات ودية مع سكان غربي إفريقيا خدمة لمصالحهم، أي لحماية طرق التجارة البحرية وتأمين محطات التموين لإنقاذ أرواح البحارة الذين تغرق سفنهم في هذه المناطق، ولكن الجشع الاقتصادي والسياسي غلبهم على أمرهم، وكانت حاجتهم إلى العمال لزراعة الأراضي الواسعة عبر الأطلنطي ملحّة جداً، فأرسلوا الإرساليات التبشيرية، وكانت مهمة الإرساليات في أول الأمر تعزيز قبول الذين اعتنقوا المسيحية لعبودية الرجل الأبيض، ومن ثم كانت تجارة الأجساد البشرية في غربي إفريقيا قائمة على أساس تقريب الرجل الأسود إلى الرجل الأبيض وتقبل سيادته، ومن ثم تحويل الزواج عن طريق اعتناقهم المسيحية إلى عبيد يخدمون الرجل الأبيض في العالم الجديد.

وكانت أنجولا و الكونغو أكبر مصادر الرقيق في إفريقيا واحتلت لواندا المرتبة الأولى بين جميع الموانئ المصدرة لهذه السلعة، فقد بلغ عدد الزواج الصادر من المستعمرتين 04 ملايين زنجي في الفترة من 1580م إلى 1836م وأسهمت أنجولا وحدها بثلاثة أرباع هذا العدد، أما بالنسبة لأسواق التصدير فكان نصيب البرازيل 50% منهم، ومنطقة الكاريبي 30%، واستوعبت منطقة نهر بلات ما يتراوح بين 10 إلى 15% من جملة هذا العدد.

كان الأوروبيون قد وجدوا أراضي زراعية خصبة في المنطقة المدارية وشبه المدارية المحيطة ببحر الكاريبي وجزر الهند الغربية، كما وجدوا في المنطقة معادن كثيرة، ولكي يغتنوا بسرعة وبوفرة طلبوا أعداد كبيرة من العمال، كما أن الأوروبيين الذين حطوا بهذه المنطقة لم يكن لديهم نظام يستوعب الهنود الحمر ويسيطر عليهم، وقد جرت عادة الأوروبيين أن يقتلوا غالبية سكان المناطق التي يسيطرون عليها، ومن ثم ازداد اقتتار المناطق الجديدة المحتلة إلى الأيدي العاملة، وقد وجد الأوروبيون في غربي إفريقيا منطقة يستطيعون الحصول منها على الأيدي العاملة المطلوبة في العالم الجديد خاصة أنها رخيصة وبها محطات للسفن المتجهة أصلاً إلى جزر الهند الشرقية.⁽³²⁾

وهكذا قد جرى قصص الأفارقة منذ القرن 15م باسم المسيح وتم نقل وبيع الأفارقة في مختلف مناطق العالم باسم المسيح، ورغم تعميده هؤلاء الأفارقة وإدخالهم المسيحية غصبا فإنهم بمجرد وصولهم إلى موانئ الشحن والتفريغ فإن عبوديتهم ظلت قائمة، وسُخِّرَ السود في تحريك الطواحين والآلات وفي جر العربات وشق الطرق وحفر المناجم وحمل الأثقال وما إلى ذلك من أعمال شاقة، ومن هنا تكونت النظرة الفوقية العنصرية عند الرجل الأبيض.⁽³³⁾

5. أثر تجارة العبيد على المجتمع الأوربي والأمريكي

بعد أن وجد الملاك الأوروبيون الاستعماريون أنه ليس في مقدورهم استخدام العمال البيض ولا العمال الهنود الحمر في العمل القهري في مزارعهم وفي المناجم تحولوا برغبة جامحة لاسترقاق الزوج من إفريقيا، وقد صار امتلاك العبيد من الزوج أمراً عاماً من الناحية العملية في النصف الغربي للقارة طوال المرحلة الاستعمارية. إن كل الدول الاستعمارية الإسبانية والبرتغالية والهولندية والفرنسية والإنجليزية كانوا مشتركين في هذه العملية الدنيئة، ولقيت عبودية الزوج مباركة الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية، كما مارسها كثير من القادة الليبراليين ومن لم يمارسها غض الطرف عنها.⁽³⁴⁾

وقد جرى نقل الأفارقة من قراهم إلى المزارع الكبيرة التي يملكها الأوروبيون في أوروبا والأمريكيتين أو حتى في نفس القارة، وقد تنافست الدول الأوروبية في عمليات الاسترقاق والاختطاف، وازدهرت المدن والموانئ الأوربية إلى درجة كبيرة،⁽³⁵⁾ وكان كل مركز من المراكز التجارية ينقل صيده من الزوج إلى موانئ بلاده، ولم تلبث أن أضحت مرسيليا ونانت وبريستول وليفربول بالإضافة إلى إشبيلية ولشبونة مستودعات لتجميع الرقيق الأفريقي استعداداً لنقله إلى المستعمرات الأمريكية.⁽³⁶⁾

ومنذ أوائل القرن 16م كان الرقيق قد أخذ يشحن إلى أمريكا وإلى كوبا، ففي عام 1521م بلغ عدد العبيد الذين بيعوا لهذا الغرض في سوق لشبونة سنة 1539م بـ 10.000 عبد ومن ثم لم تستطع الجهود البرتغالية العادية أن تسد الطلبات العادية المتزايدة للرقيق، وبدأ استغلال الأسلحة النارية للقتل.⁽³⁷⁾

كانت تجارة العبيد عنصراً أساسياً في النظام التجاري الاستعماري، بل شكلت ضرورة ملحة في ظل التنافس الدولي آنذاك. فكل التزاعات التي دارت حول السيطرة على تجارة السكر كانت في جوهرها، تتعلق بالحصول على يد عاملة إفريقية مُستعبدة، وبالسيطرة على منافذ التجارة.

ولتلبية "جوعها للزنج -" كما كانت تُوصف آنذاك - فرضت أوروبا تجارة العبيد كواقع دائم، وبمشاركة أرستقراطيات محلية حاكمة في المنطقة، وبهذه الطريقة مهّدت أوروبا الطريق للسيطرة الاقتصادية والسياسية والثقافية على إفريقيا، والتي تجلّت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.⁽³⁸⁾

كان العبد في الأمريكيتين لا يمتلك الأرض التي يفلحها أو أدوات فلاحتها أو الحاصلات التي تنتجها، بل لم يكن يمتلك زمام نفسه، وكان عبارة عن سلعة يمتلكها سيده أو جزء من رأس مال صاحب الأرض يستخدمه في الإنتاج أو يبيعه في سوق النخاسة وفق ما تقتضي به مصلحة المال، ولذلك عانى الرقيق كثيراً بسبب سوء المعاملة وانتقاله من سيد إلى آخر.

هذا المركز الاقتصادي الذي لا حول للرقيق فيه ولا قوة قد أثر في جميع نواحي الحياة المحيطة به وبالأخص في الأنماط المميزة للثقافة الزنجية الجديدة التي بدأت تظهر في العالم الجديد، وهذا الوضع المتردي للإفريقي قد حد من قدرة العبد الإفريقي على تشكيل مستقبله، أو تحديد إطار حياته أو حياة أسرته أو المجتمع الذي يعيش فيه.⁽³⁹⁾ كما بلغ عدد من استوطنوا أمريكا على امتداد 03 قرون بلغ ما بين 10 و20 مليوناً عدا من لقي حتفه أثناء عبور الأطلنطي وحرقا أثناء الغارات التي يشنها تجار النخاسة لصيد الرقيق، أما الموتى فقد بلغوا عدة ملايين، ولقد جلب معظم هؤلاء الرقيق من نيجيريا، أما المنطقة الواقعة بين السنغال والكونغو وكذلك الواقعة شمال غينيا كان حجم الرقيق المصدّر منها قليلاً وبسيطاً.⁽⁴⁰⁾

6. أثر تجارة العبيد على المجتمع الإفريقي

انقسم عصر الاستعمار الأوربي في إفريقيا إلى مرحلتين، مرحلة الاستعمار التجاري الذي اقتصر على احتلال عدد من الموانئ والمخاطات التجارية على طول الساحل البحري، والمرحلة الثانية الإمبريالية التي صاحبت الثورة الصناعية في غرب أوروبا، والتي أدت إلى عدم اكتفاء الدول الاستعمارية باحتلال سواحل القارة بل بدأت تنوغل في قلب القارة، استهدفت المرحلة الأولى تجارة الرقيق وترحيلهم للعمل في أوروبا والعالم الجديد، والمرحلة الثانية استهدفت استعباد الأفارقة في أراضهم الإفريقية لاستخراج الموارد الطبيعية، وإذا كانت المرحلة الأولى شهدت مآسي تجارة الرقيق فإن المرحلة الثانية شهدت مآسي الممارسات العنصرية، وأدى تطور تجارة الرقيق الأطلنطية واتساع نطاق الغزو الاستعماري إلى تمهيد المسرح لفقدان التكوينات الاجتماعية الإفريقية لاستقلالها الذاتي، وهو ما أدى إلى إخضاعها كلية في نهاية الأمر.⁽⁴¹⁾

إن الحقيقة التي لا يمكن إنكارها أن الأوربيين وجدوا الرؤساء الإفريقيين مستعدين لبيع ما لا يحصى من شحنات المراكب من العبيد، وقد أتى مشترو العبيد أولا في أعداد قليلة ثم تدفقوا في موجات عبر الأطلنطي، وفي سنة 1500م بعد تسع سنوات فقط من وصول الأوربيين الأوائل إلى مبانزا كونغو فإن حملة برتغالية أتت وذهب بالعبيد الإفريقيين إلى البرازيل في أمريكا الجنوبية، وبعد عقود قليلة من السنين صار العالم الغربي مليئا بأسواق العبيد الأفارقة، وقد وضعوا في العمل بالملايين في مناجم البرازيل ومزارع البن، وكذلك في جزر الكاريبي عندما بدأت القوى الأوروبية تستخدم الأرض الخصبة لزراعة قصب السكر،⁽⁴²⁾ وأدت تجارة الرقيق التي تكررت وازدهرت على مدى القرون الأربعة التالية في النهاية إلى إحداث تغييرات مأساوية ومؤسفة على سكان ومجتمع غرب إفريقيا.⁽⁴³⁾

استغل الأوربيون الحروب قبلية قديمة، وزادوا من إشغالها نظرا لحاجتهم الماسة إلى الرقيق، مما دفع الإفريقيين إلى أن يهاجموا إخوانهم ويحرقوا قراهم ويستولوا على حيواناتهم للانتفاع بها، وعلى أصحابها لبيعها لتجار الرقيق، وكلما اشتد الطلب على الرقيق ازدادت الغارات شدة وعنفا إذ كان الغزاة يهاجمون القرى ويقومون بإشعال النار في المنازل، وإطلاق الرصاص على الأهالي، وإذا بادر السكان بالهرب تلففتهم قوات المحاصرين فيصطادونهم كاللأرانب، وكان الموت نصيب من يقاوم حتى أدى مقاومة.⁴⁴

إن الجزء الأكبر من العبيد جاء من الساحل الغربي لإفريقيا الاستوائية وهو أقرب الشواطئ الإفريقية لتصدير العبيد لأمريكا، وتنافست الدول الاستعمارية من أجل الحصول على العبيد، ووزعوا القلاع على طول هذا الشاطئ واستبقوا قوات محاربة فيها لاصطياد العبيد، وكان الكثير من السفن يقوم بحارتها بالحملة لقص العبيد وترحيلهم، وقد أفرغت أقاليم عديدة من سكانها وقبائل كاملة اختفت نتيجة ذلك، وكانت عملية اغتصاب للقارة نادرا ما كان لها مثل في التاريخ القديم ولا في التاريخ الحديث.⁽⁴⁵⁾

هذه النظرة الخاطئة هي التي زينت للأوربي أعماله الوحشية فإذا أضفنا إلى ذلك جملة الظروف والعوامل التي أحاطت بالنمو الرأسمالي، أمكننا فهم الطبيعة العدوانية للشخصية الأوربية، فالكنيسة والكتاب المقدس أديا دورا خطيرا في استتراف القارة بشريا وماديا، ثم لعبا الدور الأخطر في تفرغ الإفريقي من إفريقيته، وفي استعمار القارة الإفريقية وربطها حتى بعد الاستقلال بالحضارة الأوربية، كما اتخذت الشعوب الإفريقية اللغات الأوربية كلغات لها، وهكذا تم تهميش الثقافة الإفريقية ورميها بالعجز والقصور، فأصبحت إفريقيا تابعة للغرب المسيحي بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ودلالات، وساهم المنصرون بالدور الأكبر في تطويع شعوب القارة للاستعمار، فكانوا طلائع الاستعمار وصنائه وأدواته، ولم تكن المسيحية إلا أداة لإخضاع الشعوب وتضليلها.⁽⁴⁶⁾

توالى قصص الأفارقة عبر القرون، لدرجة أن سكان إفريقيا لم يزدوا مطلقا خلال الفترة من 1650م-1750م إذ ثبت تعداد السكان عند 100 مليون نسمة خلال الفترة المذكورة، وهذا راجع إلى عمليات نزع القارة من سكانها، ونقل هؤلاء السكان وخاصة القادرين ومن هم في سن الإنجاب إلى الأمريكيتين وأوروبا ومناطق أخرى في العالم ليستخدموا فيها كقوة عمل، فتمط الإنتاج في تلك الفترة اعتمد على القوة البشرية.⁽⁴⁷⁾

7. ظروف نقل العبيد الأفارقة عبر الأطلنطي

بعد أن أقام البرتغاليون مراكز تجارية على طول الساحل الإفريقي نزلوا إلى الجنوب إلى سواحل الكونغو ووصلوا إلى أنجولا وأسسوا نقاطا ساحلية مؤقتة سرعان ما تحولت إلى وجود دائم، كما أنشئت الحصون على السواحل لتكون مخزنا لتجميع الأفارقة قبل شحنهم إلى الأمريكيتين وأوروبا.

صارت ديبو جوكاو جنوب شاطئ نهر الكونغو ميناء لتصدير العبيد، ومنها كان يشحن بالسفن نحو 05 آلاف عبد كل سنة يشحنون عبر الأطلنطي وذلك في 1630م، وفي القرن التالي فإن 15 ألفا من العبيد كانوا يصدرون كل عام من مملكة الكونغو، ولقد ترك التجار الأوروبيون سجلات دقيقة عن سرقاتهم.⁽⁴⁸⁾

إن صائدي العبيد كانوا يقيدون العبيد بالسلاسل بعضهم ببعض ويسرون بهم مئات الأميال ويدمغونهم بالأختام الحماة مثل الماشية لتمييزهم باسم المالك لهم، وينقلونهم عبر البحار في سفن العبيد المربعة، يكسوهم فيها في ظروف من الجوع والقسوة التي لا توصف -وكانت أعداد كبيرة منهم تهلك- ثم يبيعونهم للسادة المستعمرين مثل الماشية، وكان ثمة العديد من التمردات التي تحدث على ظهر السفن، إن الانخطاط الآدمي في سعيه وراء الربح لم يغرق إلى هذه الأعماق المتدنية بمثل ما حدث في تجارة العبيد.⁽⁴⁹⁾

كان الرقيق بعد قنصهم يساقون بعد أن يسلسلوا من أعناقهم بالحبال السلاسل وعليهم حراس في أيديهم الأسواط التي يهويون بها على أبدان هؤلاء التعساء، كما أن الطعام والشراب لا يقدم لهم إلا نادرا، وكان من يسقط من الإعياء يفك أسره ويترك مكانه حتى يلفظ أنفاسه، وكان الأرقاء يوسمون عادة بعلامة خاصة بأجسادهم، وإذا وصلوا إلى الشاطئ مكثوا في الزرائب إلى أن تصل السفن التي ستنقلهم عبر الأطلنطي.

وكانت قسوة التجار الأفارقة تفوق قسوة غيرهم من التجار الأوروبيين والأمريكيين، وكان الرقيق لا يشتري أو يباع إلا بتصريح يعطيه الزعيم الإفريقي، وقد ذكر الرحالة المستكشفون أن من أصل 10 عبيد يصل عبد واحد فقط إلى الساحل ويموت تسعة منهم أثناء السير، من سوء المعاملة والجوع، وكان العبيد يركبون السفن بعد تجميعهم في المواني وكانت عملية العبور فظيعة إذ كانت الأجساد ترص الواحد إلى جوار الآخر، دون أن يتمكن من الحركة.

تعتبر الرحلة عبر الأطلنطي أبشع مراحل النقل على الإطلاق، بحيث يحق لها أن تسمى بالعذاب الأكبر فقد حفلت كتب الإنسانيين المناهضين لتجارة الرقيق بالوصف المطول والحديث المؤلم عن ظروف السفن غير الصحية والسفن التي لا تصلح أصلاً لنقل الكائنات الحية، زيادة على ذلك وحشية الضباط والبحارة، ونستطيع أن ندرك مدى ما وصلت إليه قسوة الرحلة، فبعد رحلة مؤلمة تستغرق من 05 إلى 08 أسابيع تبعاً لحالة الطقس لم يكن يصل إلى موانئ البرازيل أكثر من 75 بالمئة في المتوسط.

وقد تحولت محطات تموين السفن ومستوطنات الإرساليات في القرن 17م على طول ساحل إفريقيا الغربي إلى نقاط حصينة لحجز الرقيق ثم ترحيلهم إلى العالم الجديد، ومن هذه النقاط الحصينة بدأت تجارة الرقيق المنظمة، وبدأت تتسع وتتحول إلى تجارة شاملة عصبها الإنسان من ناحية إفريقيا، والمدافع والذخيرة وبعض السلع المصنوعة أو المأكولات أو الذهب أو بعض المعادن من جانب الأوروبيين.⁽⁵⁰⁾

ليس من السهل ضبط التعداد الحقيقي للعبيد الذين يتم نقلهم إلى ما وراء البحار، والسبب يرجع إلى نسبة الوفيات العالية وسطهم فمتراوح معدل الوفيات من 07 إلى 26 بالمئة، ناهيك عن الأمراض والقتل والرمي في عرض البحار في حالة عدم قدرة السفن على الشحن،⁽⁵¹⁾ وكان السوط يستخدم لإجبارهم على الالتصاق ببعضهم ببعض في أضيق مساحة، وكان من المستحيل لأي منهم أن يتقلب ذات اليمين أو ذات الشمال، وكانت صيحات الألم ترتفع من أفواه الزنوج وتسمع في أعلى السفينة، وعلى الرغم من كل هذه الخسائر فإن أرباح تجارة العبيد كانت تصل إلى الألف في المئة في الرحلة الواحدة.⁽⁵²⁾

كانت هذه السفن تتجه من غربي إفريقيا إلى أمريكا الشمالية والجنوبية، واستمرت تجارة الرقيق أكثر من 400 سنة مات خلالها ملايين من سكان غربي إفريقيا سواء نتيجة المرض أو التأثير بجروحهم أو نتيجة الازدحام وسوء المعاملة، ويقدر عدد من مات في الأسر أو أثناء الشحن بما لا يقل عن 100 مليون شخص، وكانت أرباح هذه التجارة مرتفعة ومجزية للغاية بحيث تسمح بمثل هذه الخسائر في الأرواح، وكانت السفن عندما تصل إلى منتهائها تفرغ من بقي حيا من الرقيق، وكانت هناك أسواق للنخاسة في جزر البحر الكاريبي.⁽⁵³⁾

بدأت تجارة الرقيق بمعرفة الإسبان والبرتغال لكن سرعان ما انضم إليهما البريطانيون والفرنسيون والهولنديون وغالبية هذه الدول الأوروبية هي التي بدأت في تكوين إمبراطوريات لها في العالم الجديد، بدءاً بالساحل الشمالي لأمريكا الجنوبية، ثم انتقلت محطات استقبال الرقيق وأسواق بيعه إلى أمريكا الوسطى في بنما وحول خليج المكسيك، ثم إلى القسم الشمالي من الدولة التي عرفت فيما بعد باسم الولايات المتحدة الأمريكية.

أما الضلع الثالث من مثلث التجارة فكان يمثل الخط الملاحي الذي يبدأ من موانئ العالم الجديد متجهاً إلى أسواق ومصانع أوروبا حاملاً السلع التي أنتجها عمال إفريقيا الغربية في مزارع العالم الجديد، مثل السكر والبن والتبغ والقطن والذهب والفضة.⁽⁵⁴⁾

8. تجارة العبيد في السنغال:

إثر الاكتشافات الجغرافية التي قام بها الغربيون في أفريقيا، أخذ حجم الرق أبعادا كبيرة وجديدة، ورغم أن الأوروبيين عملوا على تحرير الإنسان الأوري من الرق إلا أنها احتفظت بنظام الرق قائما مع العناصر غير الأوربية بشكل عام وللأفارقة بشكل خاص، وذلك من أجل تزويد العالم الجديد وأوروبا بأعداد كبيرة من الأيدي العاملة.⁽⁵⁵⁾

في عام 1444، تم اكتشاف نهر السنغال الذي يعتبر أول نهر استوائي كبير يتم اكتشافه من قبل الأوروبيين حتى ذلك الحين، وهو بالتأكيد أكبر نهر صادفه البرتغاليون منذ مغادرتهم البحر الأبيض المتوسط، وكان هذا الممر المائي يؤدي إلى أغنى حقول الذهب في غرب أفريقيا، حيث كانت تتم "التجارة الصامتة في الذهب".⁽⁵⁶⁾ كان البرتغاليون أول الأوروبيين الذين استكشفوا الساحل الإفريقي، واحتلوا أرغوين سنة 1445م واستقروا على مصبات نهرى السنغال وغامبيا، وكان هدفهم في البداية تحويل مسار تجارة الذهب من السودان (أي من داخل إفريقيا) نحو المحيط الأطلسي، في محاولة للاستفادة من تجارة الذهب العابرة للصحراء القادمة من السودان، صعد البرتغاليون وادي نهر السنغال، وبذلوا جهوداً أكبر للوصول إلى أعالي نهر غامبيا.⁽⁵⁷⁾

على ضفة نهر السنغال الشمالية كان الأسرى يشكلون طبقة معروفة عند المجتمع وهم الطبقة الدنيا، ولكنها لم تكن محرومة من الحقوق والضمانات التي تقرها التقاليد والأعراف المحلية، فالأسير يستطيع الزواج، ويعيش داخل منزل سيده، ويحق لسيده أن يؤدبه ولكن ليس لدرجة الإهانة والتحقير.⁽⁵⁸⁾

ورغم أن السنغاميا ربما لم تكن من أبرز الموردين في تجارة العبيد، إلا أنها لم تكن بمنأى عن تأثيراتها، ولا تزال تعاني من آثارها طويلة الأمد التي عطّلت مسارات التقدم في المنطقة.⁽⁵⁹⁾

عندما نتحدث عن السنغال فلا بد أن نذكر في المقام الأول جزيرة غوري، تلك الجزيرة التي تواجه المحيط الأطلسي مباشرة، وكانت تدعى "بوابة اللاعودة"، لأن الذي يصل إليها لن يعود لبلاده ولا لأسرته أبداً! فمنها كان يخرج الأفارقة الأحرار من بلادهم إلى بلاد لا يعرفونها ليعملوا فيها عبيداً، وبدأت القصة بالاحتلال البرتغالي للجزيرة عام 1444م، وخلال سنوات بنى البرتغاليون كنيسة صغيرة على الجزيرة، لكن هذه الكنيسة الصغيرة لم تمنعهم من معاملة الأفارقة بوحشية مفرطة، واستعبادهم وإرسالهم إلى أمريكا الشمالية.⁽⁶⁰⁾

ظلت الجزيرة تحت الاحتلال البرتغالي قرابة قرن ونصف حتى احتلها الهولنديون عام 1617م، ثم تغلب عليهم الفرنسيون واحتلوها عام 1677م، وظلت جزيرة غوري محل صراع بين فرنسا وبريطانيا، فمن يسيطر على الجزيرة يسيطر على آخر وأهم نقطة ومعبّر لاستيراد العبيد عبر المحيط إلى أمريكا، وحُسم الصراع عام 1802م بعد معاهدة أميان، بسيطرة فرنسية كاملة على الجزيرة، وقد نالت الجزيرة استقلالها مع استقلال السنغال عن فرنسا عام 1960.⁽⁶¹⁾

تشير إحصاءات تصدير العبيد بحسب موانئ التحميل في منطقة السينغامبيا خلال الفترة من أواخر القرن السابع عشر حتى أوائل القرن التاسع عشر، موزعة حسب موانئ التحميل الرئيسية، بما في ذلك سانت لويس، وجوريه ونهر غامبيا الخاضعتين للفرنسيين والإنجليز على حد سواء إلى تذبذب سنوي في عدد العبيد المصدرين، ومن الملفت أن أعلى نسبة تصدير سُجلت في الفترة ما بين عامي 1724م و1735م، بإجمالي بلغ 49,080 عبداً.

أما توزيع العبيد بحسب موانئ التحميل فقدر بـ 259.900 عبداً، كما يلاحظ تركيز كبير في ميناء سانت لويس، خاصة في السنوات التي تلت عام 1716، ومساهمات متفاوتة من نهر غامبيا، حيث أدى كل من الفرنسيين والإنجليز دوراً في تصدير العبيد، ويظهر التوزيع الزمني ارتفاع تدريجي في عدد العبيد المصدرين من بدايات القرن 18م وحتى أواخره مع نشاط مكثف بين 1724-1735 و بين 1768-1778، ثم انخفاض ملحوظ لا سيما في العقد الأول من القرن التاسع عشر، مع تراجع الأرقام إلى 7000 عبد فقط بين 1801 و1810، وهو ما قد يعكس بداية تراجع تجارة الرقيق نتيجة للضغوط الأوروبية لإلغائها.⁽⁶²⁾

والجدير بالذكر قصة بن سعيد الإفريقي السنغالي الذي أخذ قسراً من أهله وتم نقله عبر الأطلسي إلى كاليفورنيا ليباع في أحد سواحلها، وانتهى أمره مثل الكثير من الأفارقة المسلمين الذين انتزعوا من أوطانهم وارتدوا عن دينهم واعتنقوا المسيحية، وقد كتب قصته على جدران السجن منذ طفولته، وقد أخذت بعد ذلك كنص تاريخي اعتمد عليه المؤرخون للتأريخ لمثل هاته الحالات الإنسانية.⁽⁶³⁾

كان الوجود الفرنسي في السنغال وجوداً بسيطاً رغم اهتمام فرنسا بهذه المنطقة، حتى تعوض بها جزئياً تلك الإمبراطورية الاستعمارية التي فقدتها في إنجلترا في عصر الثورة الفرنسية وعصر نابليون، وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر كان الإنجليز أكثر نشاطاً من الفرنسيين في غرب أفريقيا، حيث كانت أهدافهم التجارية أكثر وضوحاً، كما كانت عملياتهم تهدف إلى إلغاء نظام الرقيق الأفريقي، وفتح البلاد على التجارة الحرة،⁽⁶⁴⁾ وكانت فرنسا أكثر الدول الأوروبية نشاطاً في غرب أفريقيا، وكانت بداية هذا النشاط، تلك الرحلات التي بلغت السنغال بهدف إنشاء محطات تجارية لها في هذه المنطقة الأمر الذي ترتب عنه تكوين ما سمي بأفريقيا الغربية الفرنسية (A.O.F)، وهي تتألف من 08 مستعمرات (السنغال، موريتانيا، السودان الفرنسي(مالي)، غينيا الفرنسية، ساحل العاج، فولتا العليا(بوركينافاسو)، داهومي(بنين)، النيجر).⁽⁶⁵⁾

من المؤكد أن الإحصاءات حول شحنات العبيد ليست دقيقة تماماً. أحد الأسباب هو أن المصادر نفسها كانت تحرص على السرية؛ والسبب الآخر هو أن هناك الكثير من القنوات التجارية، حيث كان كل بلد يحتفظ بشبكته الخاصة، وكانت تجارة العبيد عبر المحيط الأطلسي، بما في ذلك العبيد الذين تم أسرهم في السنغال، هي العامل الأكثر تأثيراً في الانخفاض السكاني في المنطقة، خاصة عندما يتعامل مع الإحصائيات والأدلة بطريقة لا تتفق مع الأبعاد الحقيقية للتجارة في ذلك الوقت.⁽⁶⁶⁾

وكانت فرنسا قد احتفظت بإمبراطوريتها السابقة بمنطقة السنغال ونهر السنغال، وكانت هذه المنطقة تعتبر ثغراً تجارياً على مناطق السودان الغربي المستقلة في الداخل، وفشلت محاولاتها في إقامة مشاريع للإنتاج الزراعي على نهر السنغال، وزادت أهمية السنغال على مر السنوات خاصة بعد احتلال الجزائر وبدء توسعها في الصحراء صوب الجنوب الغربي، بإمكانية توافر القوى الفرنسية في الجزائر مع قوات فرنسية أخرى تأتي من السنغال.⁽⁶⁷⁾ ومع بدايات القرن الثامن عشر كان التيار التحرري -أي الذي يدعو إلى إلغاء تجارة الرقيق الإفريقي- يعتبر الإفريقي فرداً هادئاً وساعياً، ولكن تمرد عبيد سان دومينيك كان قد شوه الفكرة، فبطلت حجة دعاة التحرير، ثم بدأ التفكير في جعل السنغال على شاكلة أستراليا بالنسبة للبريطانيين مستعمرة من قبل فرنسا، وكانت فرنسا حذرة من فرض سيطرتها على الدول المجاورة للسنغال وغامبيا لافتقارها للوسائل السياسية والعسكرية، لذلك صارت العقود والمواثيق تخص فقط تجارة ما وراء الأطلسي، وقد ألغت السنغال بعض أشكال الرق حتى قبل ظهور القانون.⁽⁶⁸⁾

مع نهاية القرن الثامن عشر اتخذت بعض الحكومات موقفاً أكثر وضوحاً وحسماً بخصوص إلغاء تجارة الرقيق، وأصدرت قوانين أكثر صرامة ضد الانخراط بأي شكل من الأشكال، ففي عام 1797 حيث أصدرت الولايات المتحدة الأمريكية قانون يجرم -تحت طائلة عقوبات صارمة- قيام أي مواطن مقيم بها ببناء أو تجهيز أي سفينة بغرض المتاجرة بالعبيد إلى أي دولة أجنبية، ونفس الأمر فعلته بريطانيا أين أصدر البرلمان البريطاني عام 1807 قانوناً يحظر تجارة الرقيق، وتبعتها السويد في عام 1813 حرّمت فيها التجارة بالعبيد، وعبرت فرنسا والنمسا وروسيا وبروسيا، عن اشمئزازها من هذه التجارة، وأعلنت عزمها على التعاون في سبيل إلغائها.⁽⁶⁹⁾

وفي 11 أوت 1845م كان القانون المعمول به في محطات نهر السنغال يمنع على الملوك والزعماء شراء العبيد، سواء أكان ذلك لبيعهم في الداخل أو إرسالهم إلى سان لويس كمجندين مؤقتين، وكل من يخالف القوانين تتم متابعته قضائياً ويُعاقب، وأصبحت تجارة العبيد بالنسبة للفرنسيين تجارة غير مشروعة.⁽⁷⁰⁾

9. خاتمة:

يتضح مما سبق ذكره أن تجارة الرقيق الأفريقي كانت نشطة للغاية طيلة قرون، وتم فيها تنويع المصادر، ويمكن استخلاص جملة من النتائج نعرضها كالآتي:

لا يزال الاسترقاق يثير حساسية خاصة لدى الأفارقة، ويزيد من تعقيد هذه الصورة أن بعض الزعماء الأفارقة استرقوا بعضهم بعضاً، وأسهموا بالوساطة في تجارة الرقيق سواء ذلك للتاجر العربي أو الأوربي.

إن تجارة العبيد الأفارقة التي بدأت في القرن 15م واستمرت طوال الأربعمئة سنة التالية هي واحدة من أندر الظواهر في تاريخ العالم، فهي تمثل أكبر هجرة إجبارية في التاريخ، وفضلاً عن ذلك كان لتجارة العبيد واسترقاقهم الأهمية الحاسمة في بناء إمبراطوريات الدول الأوربية الاستعمارية وإنتاج الثروات التي فجرت الثورة الصناعية فيما بعد.

إن إزالة آثار الاسترقاق من النفوس وتحرير العقل الإفريقي من عقده وتداعياته لا يعني محو تاريخ الرق من الذاكرة، فمن الحكمة أن يتبنى الأفارقة تاريخ الرق بكل فخر واعتزاز، ويحيوا ذكرى ضحاياهم ويخلدوا بطولاته في المقاومة، ويرزوا ضعف القيم الإنسانية والضمير الإنساني في عهد الاسترقاق.

أجبرت غرب إفريقيا على تصدير أعلى مواردها الخام (الأيدي العاملة) حيث نقل ملايين الأفارقة ليشغلوا كفلاحين وحرفيين للعمل في المزارع والمناجم الأمريكية، وحقق الأوربيون بذلك أرباحاً وثروات ضخمة ورفاهية لشعوب أوروبا وأمريكا.

أصبحت المجتمعات الإفريقية من جراء هذه العمليات باستنزاف حاد وحروب مستمرة كان نتيجتها هزات عنيفة حطمت العلاقات التي كانت قائمة بين الأفراد والمجتمع، وخلخلت النظام القبلي بما كان يفرضه من علاقات بين الأفراد.

اتسمت رحلة الرقيق عبر الأطلسي بسوء المعاملة أثناء نقلهم، فكان هؤلاء يعاملون معاملة أدنى من الحيوانات، فكانوا يقيدون بالسلاسل الحديدية ويحشرون في المراكب وكثيراً منهم توفي بسبب الأمراض والاختناقات وعدم التغذية وكانت جثثهم ترمي في البحر وهم في طريقهم إلى الأراضي الجديدة، وقد امتلأت كتب البحارة بوصف هذه الرحلات الفظيعة.

10. الهوامش:

- ¹ - نعنعي عبد المجيد: أوروبا في بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة 1848-1453، 1983، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ص ص 18-19.
- ² - الكحلوت عبد العزيز: التنصير والاستعمار في إفريقيا السوداء، 1992، ط2. ليبيا، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ص50.
- ³ - عبد المجيد نعنعي، المرجع السابق، ص ص 18-19.
- ⁴ - العزب عايدة موسى: تجارة العبيد في إفريقيا، ط 01، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، 2007، ص 64.
- ⁵ - الكحلوت عبد العزيز: المرجع السابق، ص 50.
- ⁶ - هريدي فرغلي علي تسن: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر الكشوف - الاستعمار - الاستقلال، 2008، مصر، العلم والإيمان للنشر والتوزيع، ص 46.
- ⁷ - العزب عايدة موسى، المرجع السابق، ص 65.
- ⁸ - الكحلوت عبد العزيز، المرجع السابق، ص 50.
- ⁹ - Hugh thomas: *the slave trade « the story of the Atlantic slave trade 1440-1870»*, 1997, London, Simon and Schuster paperbacks, p 48.
- ¹⁰ - عبد المجيد نعنعي، المرجع السابق، ص ص 18-19.
- ¹¹ - عليان عادل محمد حسين، كاظم خالد سعود، (2012). « الاستعمار البريطاني-الفرنسي لشرق إفريقيا في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين». مجلة جامعة تكريت للعلوم، مج 19، ع 04، ص 360.
- ¹² - العزب عايدة موسى، المرجع السابق، ص 64.
- ¹³ - عليان عادل محمد حسين، المرجع السابق، ص 357.
- ¹⁴ - المرجع نفسه، ص 362.
- ¹⁵ - سليمان حسن سيد، (1986). «ظاهرة الاستعمار في إفريقيا والعالم العربي». دراسات إفريقية، المركز الإسلامي الإفريقي، الخرطوم، ع 02، ص 58.
- ¹⁶ - عليان عادل محمد حسين، المرجع السابق، ص 362-363.
- ¹⁷ - الفوزي محمد علي: في تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، 2006، بيروت، دار النهضة العربية، ص 11.
- ¹⁸ - عليان عادل محمد حسين، المرجع السابق، ص 363-364.
- ¹⁹ - الكحلوت عبد العزيز، المرجع السابق، ص ص 50-51.
- ²⁰ - المرجع نفسه، ص 09.
- ²¹ - العزب عايدة موسى، المرجع السابق، ص 66.
- ²² - نوار عبد العزيز سليمان، جمال الدين محمود محمد: تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية من القرن السادس عشر حتى القرن العشرين، 1999، القاهرة، دار الفكر العربي، ص 18.
- ²³ - عطية عبد الكامل، (2013). «تجارة الرقيق الأوروبية وأثرها على شعوب غرب القارة الإفريقية بين القرنين (15-19م)». مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، مج 01، ع 01، ص 185.
- ²⁴ - هريدي فرغلي علي تسن، المرجع السابق، ص 47.

- 25- نوار عبد العزيز سليمان، جمال الدين محمود محمد، المرجع السابق، ص 18.
- 26- هريدي فرغلي علي تسن، المرجع السابق، ص ص 77-78.
- 27- آل عمر سعيد بن عمر، «تجارة الرق عند الأوربيين حتى نهاية الحرب العالمية الأولى». آداب، كلية الآداب، جامعة الخرطوم ع 18، ص ص 105-106.
- 28- Mcdonald beckles hilary: *Voyages d'esclavages la traite transatlantique des Africains réduits en esclavage*, 2002, Paris, Univers of the West Indies, p 33.
- 29- عطية عبد الكامل، المرجع السابق، ص 185.
- 30- Akyeampong emmanuel kwaku: *themes in west Africa's history*, 2006, U.K, Ohio university press boydell & brewer, p 101.
- 31- العزب عايدة موسى، المرجع السابق، ص ص 67-68.
- 32- فرغلي علي تسن هريدي، المرجع السابق، ص ص 83-84.
- 33- الكحلوت عبد العزيز، المرجع السابق، ص ص 53-54.
- 34- العزب عايدة موسى، المرجع السابق، ص 38.
- 35- الكحلوت عبد العزيز، المرجع السابق، ص 52.
- 36- الترماني عبد السلام: الرق "ماضيه وحاضره" سلسلة عالم المعرفة، 1979، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ص 144.
- 37- عطية عبد الكامل، المرجع السابق، ص 185.
- 38- Boubacar Barry: *Senegambia and the Atlantic slave trade*, 1988, new york, USA, Cambridge University Press, p 36.
- 39- هريدي فرغلي علي تسن، المرجع السابق، ص 81.
- 40- المرجع نفسه، ص 85.
- 41- العزب عايدة موسى، المرجع السابق، ص 72.
- 42- المرجع نفسه، ص 88.
- 43- Akyeampong Emmanuel kwaku, op.cit, p 100.
- 44- هريدي فرغلي علي تسن، المرجع السابق، ص ص 87-88.
- 45- العزب عايدة موسى، المرجع السابق، ص 38.
- 46- الكحلوت عبد العزيز، المرجع السابق، ص 63.
- 47- المرجع نفسه، ص 10.
- 48- العزب عايدة موسى، المرجع السابق، ص ص 80-88.
- 49- المرجع نفسه، ص 38.
- 50- هريدي فرغلي علي تسن، المرجع السابق، ص ص 88-91.
- 51- عطية عبد الكامل، المرجع السابق، ص 188.
- 52- عطية عبد الكامل، المرجع السابق، ص 189.

- ⁵³ - هريدي فرغلي علي تسن، المرجع السابق، ص ص 91-92.
- ⁵⁴ - عطية عبد الكامل، المرجع السابق، ص 189.
- ⁵⁵ - جلال يحيى: تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، 1999، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، ص 177.
- ⁵⁶ - *Hugh Thomas, op.cit, p 59.*
- ⁵⁷ *Boubacar Barry, op.cit, p 36*
- ⁵⁸ - سلاماني عبد القادر، (2016)، الاستعمار وظاهرة الرق في أفريقيا الغربية (السنغال أنفوذجا 1854-1960). رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والإسلامية، جامعة وهران 01، الجزائر، ص 280.
- ⁵⁹ - *Boubacar Barry, op.cit, p 61.*
- ⁶⁰ - <https://arabicpost.net>
- ⁶¹ - *Ibid.*
- ⁶² - *Boubacar Barry, op.cit, p 62.*
- ⁶³ - عمران عبد الحميد، (2019). «تجارة الرقيق الإفريقي بعد الكشوفات الجغرافية الأوربية». مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، جامعة الشهيد حمه لخضر، ع 22، ص 08.
- ⁶⁴ - يحيى جلال، المرجع السابق، ص 260.
- ⁶⁵ - إبراهيم عبد الله عبد الرزاق، الجمل شوقي: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، 2002، ط 2. الرياض، دار الزهراء، ص 280.
- ⁶⁶ - *Boubacar Barry, op.cit, p 65-67.*
- ⁶⁷ - جلال يحيى، المرجع السابق، ص 260.
- ⁶⁸ - سلاماني عبد القادر، المرجع السابق، ص ص 351-353.
- ⁷⁸ - *religious society of friends: African slave trade, from the year 1840 to 1850, inclusive, 1851, Philadelphia, j. uakestraw printer, p 05-07.*
- ⁷⁹ - سلاماني عبد القادر، المرجع السابق، ص ص 351-353.

11. قائمة المصادر والمراجع:

1. المراجع باللغة العربية:

أ. الكتب:

1. إبراهيم عبد الله عبد الرزاق، الجمل شوقي. (2002). تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر. الرياض: دار الزهراء، ط2.
2. الترماني عبد السلام. الرق (1979). "ماضيه وحاضره". سلسلة عالم المعرفة، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
3. الفوزي محمد علي. (2006). في تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر. بيروت: دار النهضة العربية.
4. الكحلوت عبد العزيز. (1992). التنصير والاستعمار في إفريقيا السوداء. ليبيا: منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ط2.
5. العزب عايدة موسى. (2007). تجارة العبيد في إفريقيا. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ط1.
6. جلال يحيى. (1999). تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر. الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث.
7. نعنعي عبد المجيد. (1983). أوروبا في بعض الأزمة الحديثة والمعاصرة 1453-1848. بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.

8. نوار عبد العزيز سليمان، جمال الدين محمود محمد. (1999) تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية من القرن السادس عشر حتى القرن العشرين. القاهرة: دار الفكر العربي.

9. هريدي فرغلي علي تسن. (2008). تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر الكشوف - الاستعمار - الاستقلال. مصر: العلم والإيمان للنشر والتوزيع.

ب. المجالات:

10. آل عمر سعيد بن عمر. (د.ت) «تجارة الرق عند الأوربيين حتى نهاية الحرب العالمية الأولى». مجلة آداب، كلية الآداب، جامعة الخرطوم، ع18.

11. سليمان حسن سيد. (1986) «ظاهرة الاستعمار في إفريقيا والعالم العربي». دراسات إفريقية، المركز الإسلامي الإفريقي، الخرطوم، ع2.

12. عليان عادل محمد حسين، كاظم خالد سعود. (2012) «الاستعمار البريطاني-الفرنسي لشرق إفريقيا في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين». مجلة جامعة تكريت للعلوم، مج19، ع4.

13. عطية عبد الكامل. (2013) «تجارة الرقيق الأوربية وأثرها على شعوب غرب القارة الإفريقية بين القرنين (15-19م)». مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، مج1، ع1.

14. عمران عبد الحميد. (2019) «تجارة الرقيق الإفريقي بعد الكشوفات الجغرافية الأوربية». مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، جامعة الشهيد حمة لخضر، ع22.

ج. الرسائل الجامعية:

15. سلاماني عبد القادر. (2016) الاستعمار وظاهرة الرق في أفريقيا الغربية (السنغال أتموزجا 1854-1960). رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والإسلامية، جامعة وهران 01، الجزائر.

د. المواقع الإلكترونية :

- <https://arabicpost.net>

2- المراجع باللغة الأجنبية:

- Books:

- Akyeampong Emmanuel Kwaku: (2006). *themes in west Africa's history*, U.K, ohio university press boydell & brewer.

- Boubacar Barry: (1988). *Senegambia and the Atlantic slave trade*, new york, USA, Cambridge University Press.

- Hugh Thomas: (1997). *the slave trade « the story of the Atlantic slave trade 1440-1870*, London, Simon and Schuster paperbacks.

- McDonald beckles Hilary: (2002). *Voyages d'esclavages la traite transatlantique des Africains réduits en esclavage*, Paris, Univers of the West Indies.

- Religious society of friends: *african slave trade, from the year 1840 to 1850, inclusive, 1851*, Philadelphia, j. uakestraw printer.